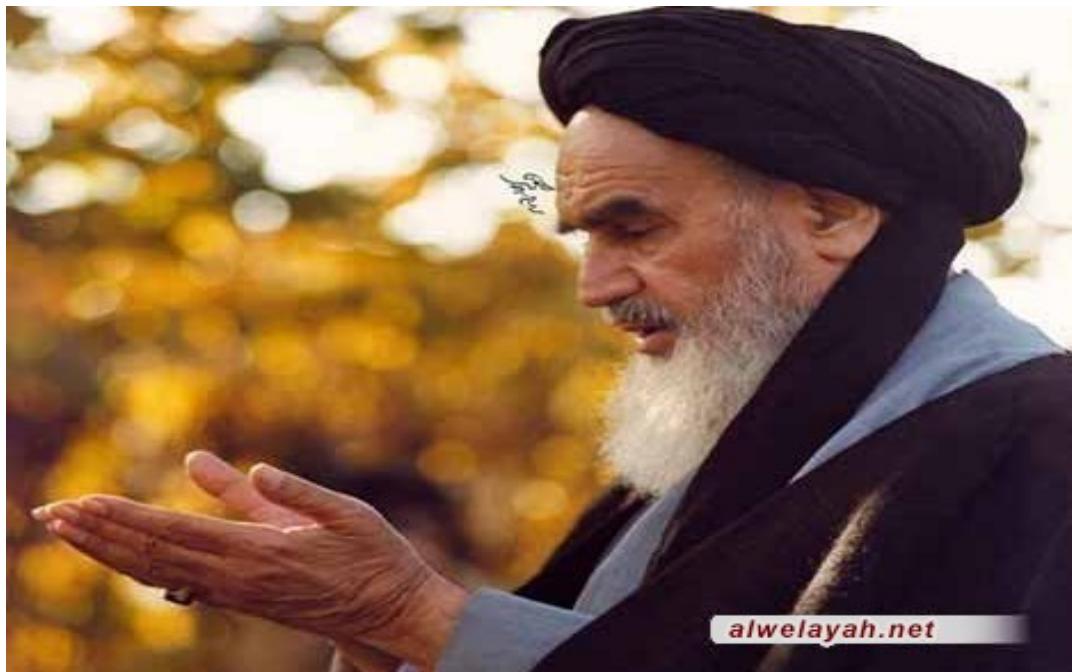


تذكرة النفس عند الإمام الخميني[™] قدس سره



الشيخ باقر محمد حسين

من أهمّ أهداف الشريعة الإسلامية، الدعوة إلى تهذيب النفس وتطهيرها، بل إنّ تذكرة النفس هي المقصود الأعلى والهدف الأساسي الذي يحقق للإنسان السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٌ
وَمَا سَوَّاهَا﴾ فـ﴿أَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قـ﴿أَفْلَاجَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقـ﴿وَمَا
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 10-7)، وإنّ هدف الرسالة النبوية هي التذكرة والتعليم، كما ذكر الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ بَيْنَ رَسُولِهِ مِنْهُمْ يَتَدَلَّوْ عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: 2). وسنطلع في هذا
المقال على خطوات تهذيب النفس عند الإمام الراحل الخميني[™] قدس سره.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: "انتهوا فرص الخير فإذا تمرّ مرّ السحاب" (1). يحتاج الإنسان إلى التربية والتزكية في مراحل العمر كلّها، ولكنّ المرحلة الأساس المؤثرة هي مرحلة الشباب؛ لهذا يوصي الإمام الخميني قدس سره ابنه السيد أحمد بضرورة إصلاح النفس، وخصوصاً في أيام الشباب، وعدم الاغترار بمكائد الشيطان: "بُنْيٰ، اسع في إصلاح نفسك ما دمت تحظى بنعمة الشباب، فإذا لك ستختبر كلّ شيء في الشيخوخة، فمن مكائد الشيطان-ولعلّها أخطر مكائد- هي الاستدراج؛ ففي أوائل الشباب يسعى شيطان الباطن وهو أشدّ أعداء الشباب- في ثنيه عن إصلاح نفسه، ويُمنيه بساعة الوقت، وأنّ الآن هو أوان التمتع بالشباب، ويستمرّ في خداعه بالوعود الفارغة ليصدّه عن فكرة الإصلاح تماماً. وساعةً بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، يتصرّم الشباب ويرى الإنسان نفسه فجأةً في مواجهة الهرم الذي كان يوماً في إصلاح نفسه" (2).

• شهر رمضان فرصة لتهذيب النفس

إنّ لشهر رمضان المبارك خصوصيّة إضافيّة وفرصة استثنائيّة لنيل المنح والهدايا الإلهيّة، فهو شهر دُعيتم فيه إلى صيافة الله، وهو شهر الصيام وشهر الإسلام وشهر الطهور (3).

وقد جاء في خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في استقبال شهر رمضان المبارك: "أيّها الناس، من حسّن منكم في هذا الشهر خلقه، كان له جواز على المراط يوم تزلّ فيه الأقدام..." (4).

يوصي الإمام الخميني قدس سره بالاهتمام بهذه الفرصة الإلهيّة لتهذيب النفس في شهر رمضان المبارك حيث يقول قدس سره: "في شهر رمضان، شهر الله، ينبغي أن تعلموا أنّ أبواب رحمة الله لعباده مفتوحة، وأنّ أيدي الشياطين والمردة مغلولة، فإذا لم تستطعوا في هذا الشهر إصلاح نفوسكم وتهذيبها ومراقبتها، فإنّ من الصعب جداً أن تقدروا على ذلك بعد انتهاء شهر الصيام. إذا، فاغتنموا الفرصة..." (5).

•كيف نهذّب أنفسنا؟

تهذيب النفس معناه تطهير القلب وتنطيفه؛ لكي يصبح طاهراً وخالياً من القدارات، فهو يشبه المرأة التي تعكس الصور عند إزالة المواتع عنها حال نقاها وعدم اتساخها. وكذلك القلب، إذا لم يكن نظيفاً وطاهراً وخالياً من الخُلُق السيئ، كالرياء والعجب والكبر والحسد وغيرها، فلا يمكن أن يتذوق طعم محبة الله سبحانه، ولذة عبادته ومناجاته للحق عز وجل.

وقد أورد الإمام الخميني قدس سره كيفية مواجهة النفس وتهذيبها، واعتبر أن الخسران الكبير يكمن في هزيمة الإنسان في هذا الجهاد؛ لأن مملكة النفس سوف تصبح مسرحاً للشياطين(6).

•خطوات تهذيب النفس

ولكي نتمكن من البدء بشكل صحيح، نعرض بشكل إجمالي أهم الأمور التي يحتاج إليها الإنسان في طريق تهذيب النفس ومجاهدتها، وفق ما أورده الإمام الخميني قدس سره.

أولاً: التفكير: بمعنى أن يتفكر الإنسان في نعم الله سبحانه التي تحيط به منذ ولادته إلى آخر حياته: ﴿وَإِنْ تَعْدُدْ وَاً نِعْمَاتَ اللَّهِ لَا تُحْصِّنَهَا﴾ (إبراهيم: 34)، وأن الهدف من النعيم هو شيء آخر وراء الحياة المادية.

قال قدس سره: "إن الإنسان إذا فكر لحظة واحدة، عرف أن الهدف من هذه النعيم هو شيء آخر، وأن الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم"(7).

ثانياً: العزم: وهو أن يوطّن الإنسان نفسه على ترك المعاصي والتزام الواجبات، ويتخذ قراراً بذلك.

ينقل الإمام قدس سره عن بعض مشايخه قوله: "إن العزم هو جوهر الإنسانية ومعيار ميزة الإنسان، وأن اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه"(8).

ثالثاً: المشارطة والمراقبة والمحاسبة: من الأمور الضرورية للمجاهد: المشارطة والمراقبة والمحاسبة، فالمسارط، من يشارط نفسه في أوّل يومه على أن لا يرتكب فيه أيّ عمل يخالف أوامر الله، ويتدخّل قراراً بذلك ويعزم عليه.

بعدها، عليك أن تنتقل إلى "المراقبة"، وهي أن تنتبه طوال مدّة المشارطة إلى عملك وفقها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شارطت.

وإذا حدثتك نفسك-لا سمح الله- بأن ترتكب عملاً مخالفًا لأمر الله، فاعلم أنّ ذلك من عمل الشيطان وجنته، فالعنهم واستعد بما من شرّهم، وقل للشيطان: "إنّي اشتربت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم بأيّ عملٍ يخالف أوامر الله تعالى".

ومراقبة لا تتعارض مع أيّ من أعمالك، كالعمل والسفر والدراسة. فكن على هذه الحال إلى الليل، ريثما يأتي موعد المحاسبة.

"وأمّا المحاسبة فهي أن تحاسب نفسك لترى ما إذا أديت ما اشتربت على نفسك مع الله أم لا، وأنّك لم تخن ولبيّ نعمتك في هذه المعاملة الجزئية؛ إذا كنت قد وفّيت حقّاً، فأشكر الله على هذا التوفيق، وإن شاء الله يُيسّر لك التقدّم في أمور دنياك وآخرتك. وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، فواطّب على هذا العمل فترة، والمأمول أن يتحول إلى ملائكة فيك بحيث يصبح هذا العمل بالنسبة إليك سهلاً ويسيراً للغاية، وستحسّع عندها باللذة والأنس في طاعة الله تعالى وترك معاصيه" (9).

رابعاً: التذكرة نتيجة للمراقبة: التذكرة يحصل نتيجةً للمراقبة الدقيقة للنفس، وهو المعين للإنسان بصورةٍ كاملة في مجاهدته للنفس والشيطان، قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبَدِّصُونَ (الأعراف: 201)، وقال أيضاً: وَالذَّاكِرُونَ اللَّاهَ كَذِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ (الأحزاب: 35).

ويقول الإمام قدس سره: "يا أيّها العزيز؛ كن ذاكراً لعظمة ربّك، وتذكّر نعمه وألطافه، وتذكّر أنّك في حضرته وهو شاهد عليك، فدع التمرّد عليه، وفي هذه المعركة الكبرى تغلّب على جنود الشيطان، واجعل مملكتك مملكة رحمانية وحقانية، واحلل فيها عسكر الحقّ تعالى محلّ جنود الشيطان،... فاطلب من الحقّ نفسه، بتصرّفٍ وخشوّع، كي يعينك في هذه المجاهدة لعلّك تنتصر، إنّه ولبيّ التوفيق" (10).

• ثمرات الانتصار في هذا الجهاد

إنَّ المراقبة والتذكرة والمجاهدة لها ثمرات كثيرة، منها أَنَّها تنقل الإنسان إلى مرحلة متقدمة من العلاقة بِالله سبحانه، فيرى الإنسان نفسه دائمًا في محضر الله ذاكراً له، وعندما يكون من المرضيَّين، عاماً برضى ربِّه سبحانه، فيفيض الله عليه من الدُّعَام والخير الكثير، وإليكم هذه الهدية الإلهيَّة:

عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمًا أجابه ربِّه سبحانه ليلة المراج: "... يا أَحمد، هل تدري أي عيش أهنى وأي حياة أبقى؟ قال: اللَّهُمَّ لا، قال: أمًا العيش الهنيء، فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري، ولا ينسى نعمتي، ولا يجهل حقّي، يطلب رضي ليه ونهاره، وأمًا الحياة الباقيَّة فهي للذي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينيه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبتغى مرضاتي، ويعطِّم حقَّ عظمتي، ويذكر علمي به، ويراقبني بالليل والنَّهار عند كل سيدةٍ وعصبةٍ، وينفي قلبه عن كلٍّ ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبلاً، فإذا فعل ذلك أسكتتُ في قلبه حبًّاً حتّى أجعل قلبه لي، وفراغه واستغallه وهمَّه وحديته من النعمة التي أنعمتُ بها على أهل حبِّتي من خلقِي، وأفتح عين قلبه وسمعه، حتّى يسمع بقلبه، وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيقْه على الدنيا، وأبغضْه إلى ما فيها من اللذات، وأحدَّره من الدنيا وما فيها، كما يحدِّر الراعي غنمَه من مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا، يفرُّ من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن..."(11).

اللهُمَّ ارزقنا بِمُحَمَّدٍ وآلِه الطاهرين.

1. جامع أحاديث الشيعة، البروجردي، ج 14، ص 317.

2. نفحات ملكوتية، الإمام الخميني قدس سره، ص 148.

3. الصحيفة السجادية، الإمام زين العابدين عليه السلام، الدعاء 44 (وهو دعاؤه إذا دخل شهر رمضان).

4. الأمالى، الصدوق، ص 154.

5. الجهاد الأكبر، الإمام الخميني[ؑ] قدس سره، ص49.

6. الأربعون حديثاً، الإمام الخميني[ؑ] قدس سره، ص40.

7. (م.ن)، ص33.

8. الجهاد الأكبر، (م.س)، ص34.

9. الأربعون حديثاً، (م.س)، ص34.

10. (م.ن)، ص39.

11. إرشاد القلوب، الديلمي[ؑ]، ج1، ص199.

المصدر: مجلة بقية آفاق